أجل وإن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من ذلك التميّز البارع، إعلاناً - منذ البداية - لما هم عليه دون تزعزع ولا ممارات، ولما يدعون إليه دون مجارات وأنصاف حلول، صراطاً مستقيماً لا حول عنه!.

وتلك هي السنة السنية الرسالية في كل خطوطها بكافة بنودها بمن يحملونها في خيوطها طول الزمان وعرض المكان:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا... إِلَّا﴾ حصر للرسالة الأصيلة الإلهية في رجال من جنس الإنس، دون نساء منهم مهما بلغن الذروة من الكمال، ولا من الجن وسواهم رجالاً ولا نساء، مما يدل على حصر الرسالة في بعدي الرجولة والإنسانية، فلا تنافي الآيات الصريحة أو اللامحة في رسالة الجن فإنها على هامش رسالة الإنس، ولا الرسالة فيمن سوى الجن والانس حيث المجانسة شرط في الرسالة بين الرسول والمرسل إليهم، إذا فأصل الرسالات الإلهية للعالمين ومحورها الأصيل رجال من الإنس، مهما حملها رجال من الجن وسائر العالمين كخلفاء لرسل الإنس، ثم يحملها في دعوة عليمة سليمة كل من تحملها علماً وعملاً صالحاً رجالاً ونساء وكما في واجب الدعوة والأمر والنهي فـ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ...﴾[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ منذ بداية الرسالات ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ لا ملائكة كما كانوا يزعمون ويقترحون، ولا سواهم ﴿إِلَّا

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

رِجَالًا . . .مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بشراً مثلك وأمثالهم من أهل المجتمعات البشرية، حيث القرية هي المجتمع أياً كان، في مدينة أو ضاحية أماهيه.

فلست أنت بدعاً من الرسل، فإنك رسول كسائر الرسل، رجل من أم القرى كما هم من أهل القرى، مهما بان البون بينك وبين سائر الرسل كما البون بين أم القرى وسائر القرى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حاضرها وغابرها، تاريخاً جغرافياً وجغرافياً تاريخياً عن شؤون الرسالات الإلهية، أفلم يسيروا فيها لينظروا رجالات الرسالات أنهم كما أنت من أهل القرى ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ ثم ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الذين أرسل إليهم ﴿حَيْثُ﴾ رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها «فأنكروا رسالات ربهم» ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾: الدنيا وهم فيها، تقوى عن طغوى النكران ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في أنفسكم، وفيما تنظرون من الذين من قبلكم؟

ولعمر الله إنها هزّة فظّة تهز القلوب حتى المقلوبة المتجبرة، الجاسية القاسية المتكبرة، فلحظات الاسترجاعات الخيالية لحركات الطاغين وسكناتهم وخلجاتهم، فإذا هم على حين غفلة وغفوة لا حس لهم ولا حسيس ولا حركة، قصورهم خاوية، ودورهم خالية، طواهم الموت طياً ولا فوت، فتلك مصارعهم بين آونة وأخرى ولات حين مناص.

إنها تهز هزة وتفز فزة فظه، مهما يكن القلب خاوياً، وجاسياً قاسياً، فكيف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عقل دراية، فتعتبروا بعاقبة المكذّبين قبلكم، وما قاساه رسل الله منهم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾:

أترى من هم الذين ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾؟ أهم الرسل لقرب

المرجع؟ فمن كذبهم؟ أهم المرسل إليهم؟ وقد علموا أنهم كذّبوهم طول التاريخ الرسالي أشد تكذيب دون ان يكذبوهم! ويظنوا! وإنما يكذبهم المنافقون فيما يدعون من الإيمان، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ غاية الأمر لكل الناكرين دون خصوص المنافقين! ثم وكلّ من كذبهم نفاقاً، وتكذيبهم كفراً، معلوم لدى الرسل ملموس، والنص «ظنوا»! ولقد ظن ناس ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾(١) ونحن نكذب قولتهم بروايتهم حيث النص ﴿كُذِبُواْ﴾ وكما يروى عن الرسول ﷺ(٢) كما وتكذب الرواية القائلة أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله والعياذ بالله من هذه المقحمات الزور(٣) وكيف ييأس الرسل من نصر الله لحد ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله و﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(٤) فضلاً عن ظنهم!.

إذاً ففاعل الظن والكذب هم المرسل إليهم المدلول عليهم - على بعدهم - بـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حيث تتحدث عن الغاية التي انتهوا إليه امام رسلهم ﴿. . . كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . .﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ. . .﴾ ومم استيأس الرسل، أمن نصر الله وروحه؟ و﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

(١) الدر المنثور ٤: ٤١ - أخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ﴾ [يُوسُف: ١١٠] بالتشديد.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه من طريق عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يُوسُف: ١١٠] مخففة واخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يُوسُف: ١١٠] مخففة.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٧٨ ج ٢٤٨ القمي في الآية حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: وكلهم إلى أنفسهم فظنوا أن الشياطين قد تمثلت لهم في صورة الملائكة، في تفسير العياشي عن ابن شعيب عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: وكلهم إلى أنفسهم أقل من طرفة عين، أقول وتكذبهما الروايات التالية.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[١]! أم استيأسوا من إيمان هؤلاء النسناس إذ كذّبوهم لحد ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ في وعد النصر، فكذلك الأمر وكما في روايات[٢] والآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٣].

وإنها ساعات حرجة محرجة للذين آمنوا أن يظن الكافرون أن الرسل كذبوا في وعد النصر، فالباطل - إذاً - يتنفش ويغدر ويبطش، والرسل ينتظرون نصر الله كما وعدوا، وهنالك زلزال المؤمنين إذ تهجس في خواطرهم الهواجس.

في تلكم اللحظات التي يستحكم فيها الكرب ويأخذ فيها الضيق بمخانق المؤمنين، ولا تبقى ذرة مثقال من الطاقة المدخرة لهم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيرتاح له المؤمنون ويرتاع به الكافرون، ويحظوا به المرسلون ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ من الرسل من زلزال المؤمنين حيث هالهم، والمؤمنون من مخالفتهم

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) المصدر في تفسير العياشي عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزع به الشيطان؟ قال: فقال أن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار وكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه وح ٢٥١ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول الله عز وجل - إلى أن قال - فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] قال الرضا عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من قومهم فظن قومهم أن الرسل قد كذبوا جاء الرسل نصرنا، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن عليه السلام.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

بالبأساء والضراء، ثم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ البأس الذي فيه دمارهم وبوارهم:

تلك هي سنة الله في الدعوة والداعية، إن عليهم تكريس كافة طاقاتهم في الدعوة إلى الله، والتصبر في كافة المضايق على أذى الناكرين ولظاهم، انتظاراً للانتصار من الله بعد تقطع الأسباب وتقلب القلوب، وتحير الألباب.

أجل وليس النصر رخيصاً على الأبواب، إلّا بعد استئصال الأسباب باستعمالها في كل باب، ومن ثم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ - ولكنما ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1] الشدائد في هذه السبيل الشاقة الطويلة الملتوية المليئة بالأشلاء والدماء، إنها لا يصمد لها إلّا الواثقون بوعد الله، الصادقون في إيمانهم بالله، فهم - إذاً - لا يتخلون عن الدعوة إلى الله مهما بلغت بهم الشدائد وحتى إن ظن الكافرون أنهم كذبوا، وزلزل المؤمنون انتظارا للانتصار.

وكيف يستعجل الداعية أجل النصرة وهو يواجه طواغيت يملكون المال والقوة واستخفاف الجماهير واستحمارهم، ويملكون تأنيبهم بتأليب الجماهير الجاهلة ضدهم.

درسنا في قصص الصديق ألواناً من الشدائد، في الجب وبيت العزيز وأمام نسوة في المدينة وفي السجن، فصبر واصطبر دونما زعزعة لعرش رجاءه بنصر الله حتى جاءه نصر الله، لا على إخوته فحسب، بل وعلى العزيز والعزيزة ورجال الحاشية وفرعون نفسه، فيا له من قصص بارع فيه عبرة لأولى الألباب:

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾:

﴿قَصَصِهِمْ﴾ عله - فقط - قصص يوسف وإخوته: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾[١] وقد يعنيهم وقصص الرسل ككل، فـ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ - إذاً - يعم قصص القرآن ككلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾[٢] ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ﴾[٣].

والعبرة هيئة خاصة من العبور، فهي - إذاً - انتقالة من حالة إلى أخرى أحسن منها: من غفلة إلى ذكرى، وذلك طبيعة الحال في أولي الألباب، وهي لباب العقول، فحين يستعمل العقل سليماً تتحلل عن القشور الحاجبة، فتصل إلى الأوامر الواجبة.

﴿مَا كَانَ﴾ قصص يوسف وإخوته، ولا كل القصص القرآنية ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أن يفتريها الرسول ﷺ على الله دونما وحي، فلو كان القرآن مفترى والتورات والإنجيل وحياً لكان كلام البشر أفضل وأتم من كلام الله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[٤].

فـ ﴿مَا كَانَ﴾ دون «ليس» نفي باتّ مؤكد عن كينونة القرآن أن يفترى من دون الله، بطبيعة الحال في القرآن نفسه حين يتدبر في آياته وتقاس بسائر الوحي السابق عليه، حيث الرجاحة في القمة باهرة فيه دون ريب يعتريه.

(١) سورة يوسف، الآية: ٧.
(٢) سورة طه، الآية: ٩٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

وهنا للقصص القرآن أو القرآن ككل مواصفات عدة مستفادات من القرآن نفسه دون ادعاءات خاوية عن البرهان:

(١) - ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حيث ينقلهم من حالاتهم الرديئة جهلاً وجهالة وغفوة وغفلة إلى حالات حسنة بديعة علماً وذكرى ونبهة وحفوة.

(٢) - ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ كما يعرف من تدبّره وقياسه إلى سائر الوحي.

(٣) - ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[١] من وحي ناصع واصب، ومن حديث الفرية ما كان من أهل الكتاب إذ يرون خلافات بين هذا القرآن وكبتهم، في حين يرون أنها هي الأصل فيقاس عليها القرآن، فما وافقها منه فمأخوذ من كتبهم، وما خالفها فمفترى على الله!، فالنفي ﴿مَا كَانَ...﴾ نفي للفرية «ولكن» إثبات لوحيه إذ يصدق الذي بين يديه، وليس هو الكتب الرائجة بينهم فإنها بين أيديهم لا بين يديه، ولا يعني ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هنا وفي ساير القرآن إلّا ما نزل على أنبياء الله من قبل، دون المحرف المفترى! كما عرفنا الفوارق بين قصص يوسف وإخوته هنا وفي التورات.

(٤) - ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجه العالمون إلى يوم الدين، وهو زيادة على «ما بين يديه» - ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[٢].

وهذه كليّة شاملة لا تشذ شيئاً يحتاجه العالمون، دون سائر الوحي، كما التورات: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾[٣] ف «من» لمحة لامعة إلى تبعيض موعظةً وتفصيلاً، ف ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كما ﴿مَّوْعِظَةً﴾ هما المحتاج إليه في الشرعة الإسرائيلية في دورها

(١) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

المحدود، إضافة إلى الفرق بين ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ حيث التنوين التنكير يشير إلى التبعيض المستفاد من «من».

فالقرآن هو تفصيل مطلق للكتاب المكنون عند الله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾(٢).

وسائر كتابات الوحي هي مطلق تفصيل للكتاب دون شمول يعم كل زمن التكليف.

(٥) - ﴿وَهُدًى﴾ زائدة على الهدى السابقة عليه في سائر كتابات الوحي.

(٦) - ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ليست هي لناكريه مهما كان أهل كتاب من عهد قديم أم جديد، وحيث البون بين ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ هنا وهناك شاسع واسع، بوناً بين المحدود بزمن والشامل لكل الزمن، مع العلم أن الهدى المحدودة محرفة عن جهات أشراعها فلا تصلح حتى لزمنها المحدود.

فالقرآن بمنظار الإيمان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وبمنظار تفتيش الواقع «ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ». . . وبمنظار الألباب «عبرة» فهو في ذلك المثلث الرائع تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»! وهكذا يتوافق المطلع والختام في قصص يوسف وإخوته، وقد يختلف عن سائر قصص القرآن فإنها مقصوصة مبثوثة في مختلف المناسبات، ولكن قصة يوسف مسرودة مترتبة في سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من العرض، حيث الحلقات الأصيلة المذكورة منها متلاحقة، وهي تشكّل قصة واحدة لو

(١) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.

قصّت وبثّت في مختلف المجالات لم تكن عبرة كما هي في مواصلتها، دون سائر القصص حيث تقتص منها حلقات بقلة أو كثرة دون تمام في مختلف المناسبات إذ تكفي عبرة ونبهة كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ومن دونهم من رسل جاءت قصصهم في مختلف القرآن.